مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 26، سبتمبر 2020، ص - ص: 985 – 1010
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الحوارية في الفن الترسلي التراثي
رسائل ابن أبي الخصال أنموذجا

Dailogism in the art of heritage letters
Ibn Abi Al-khasal letters as a model

أ/ صونيا بوعبد الله[1] أ.د/ عبد القادر دامخي
كلية اللغة والأدب العربي والفنون جامعة باتنة 1
مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر
dhia.damkhi@gmail.com sonia.bouabdallah@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2020/08/09 تاريخ القبول: 2020/08/23

الملخص

يهدف هذا البحث إلى معاينة صورة اللغة في رسائل ابن أبي الخصال من خلال الآليات الحوارية المتمثلة في: الأسلبة اللغوية، التهجين اللغوي، الحوار الفني، وفيه تم الكشف عن التفاعلين اللفظي والنصي مع اللغة والأسلوب اللغوي الخفي وحوار النصوص وسياقها الخارجي، ويظهر أن ابن أبي الخصال لجأ إلى العلاقات المتداخلة ذات الطابع الحواري بين اللغات بغية خلق وعي لساني متعدد في شكل آني بحلة جديدة، ويعود انسجام اللغات الهجينة الموظفة إلى حسه الفني ودقته اللغوية ، وقد أدى الحضور المتنوع للنصوص داخل الخطاب الرسائلي إلى شحذ المساحة التأويلية للمعاني من خلال خلق سياق نصي خارجي اشتبكت فيه الأبعاد النفسية والاجتماعية والسياقية، ووفق هاته الطريقة حققت رسائل ابن أبي الخصال التعددية اللغوية المفضية إلى الشمولية النصية وذلك من خلال عرض الحقيقة الواحدة من وجهات نظر متعددة.

الكلمات المفتاحية: الحوارية؛ رسائل ابن أبي الخصال؛ الأسلبة؛ التهجين؛ الحوار الفني.

[1]- المرسل المؤلف.

Abstract

This research aims to examine the image of language in the letters of Ibn Abi Al-Khasal through the dialogue mechanisms of: linguistic stylization, linguistic hybridization, artistic dialogue, in which verbal and textual interactions with language, hidden linguistic style, dialogue of texts and their external context. appears that Ibn Abi Al-Khasal resorted to the intertwined relations characterized by dialogue between languages in order to create a multiple linguistic awareness in a simultaneous form with a new style, the varied presence of texts in the letters discourse led to sharpen hermeneutic distance of meanings. by creating an external textual context in which the psychological, social and contextual dimensions clashed, and according to this method the letters of Ibn Abi Khasal achieved the linguistic pluralism leading to inclusivity Textual through displaying the one truth from multiple perspectives.

Key words: Dialogism; Ibn Abi Khasal's letters; stylization; Hybridization; Artistic Dialogue.

مقدّمة:

النظرية الحوارية التي جاء بها "ميخائيل باختين" mekhail bakhtin لديها العديد من المصطلحات نتيجة الترجمات المتباينة، منها الديالوجية dialogue والبوليفونية poliphonie، ويقصد منها "لغة تعدد الأصوات، وقد أخذ هذا المصطلح من الفن الموسيقي في عزف آلة solo مع مجموعة الآلات الفرقة الموسيقية وقصد به "تبادل الألحان بين مجموعة العازفين أو الفنيين، في نسق هرموني يسيطر عليه الانسجام والانتظام"[1]، ليتم نقله إلى الأدب والنقد في العصر الحديث، وهو المصطلح الذي استخدمه "ميخائيل باختين" حين "أدرك أن المبدع يستخدم أداة سبق استخدامها ملايين المرات ألا و هي اللغة ، حيث إن التفاعل اللفظي، هو خاصية أساسية من خصائص اللغة ، كما أن اللغة لا تحيا إلا من خلال تفاعلها مع الآخر أو على

ألسنة المتحاورين بها، كما أن الآخر لا يرسل كلاما إلا من خلال آخر وقع، وتأخذ اللغة في حقل التبادل الكلامي الملازم لها شكل سيرورة مفتوحة ، قوامها التنوع الكلامي الصادر عن بشر أحياء لهم شروطهم الاجتماعية المشخصة"[2].

تدل الحوارية عن العلاقة بين التعبير والتعبيرات الأخرى باعتبار أنه "لا يوجد تعبير لا تربطه علاقة بتعبيرات أخرى، وهذه العلاقة جوهرية تماما، ولذا فإن النظرية العامة للتعبير هي في منظور باختين انعطافة لا يمكن تفاديها كي نصل إلى دراسة هذا المظهر من مظاهر المسألة "[3]، هذا يعني أن العلاقات الحوارية في الخطاب تتجسد من خلال تفاعل لغتين على الأقل وتعكس هاته اللغة العلاقات الاجتماعية المتفاعلة الناتجة عن المنظومة السياسية والاقتصادية والأيديولوجية...إلخ،أي أن الخطاب صورة عن اللغة و اللغة صورة حوار لا ينقطع، وقد جاء مفهوم الحوارية ردا على مقولة "الأسلوب هو الرجل نفسه" التي جاءت بها الأسلوبية التقليدية وعلى غرار هذا نادى "باختين " أن الأسلوب هو رجلان، على الأقل أو بدقة أكثر، الرجل و مجموعته الاجتماعية مجسدين عبر الممثل المفوض، المستمع، الذي يشارك بفعالية في الكلام الداخلي والخارجي للأول"[4]، هذا يعني أن "باختين" نادى بالتعددية الأسلوبية التي تسهم في تشييد الخطاب الحواري، فحوارية "باختين" وجهت نقدا للشكلانية والبنيوية من خلال دراسة الجانب الثاني للكلمة وهذا ما أسماه "علم عبر اللسان" metalinguistics، وفيه درس "باختين" حياة الكلمة في ظل العلاقات الحوارية رافضا اختزال اللغة إلى رموز لأن الخطاب من منظوره قائما بين فاعلين اجتماعيين على الأقل حيث يوجد في الخطاب الواحد صوتين متحاورين ومنفعلين مع بعضهما البعض لحد اندماجهما في صوت واحد يمثله ذلك الخطاب ويكون هذا الصوت مزدوجا وبهاته الطريقة تتخلق الكلمة مزدوجة الصوت التي تسهم في بناء حوارية الخطاب التي تظهر بشكل خاص في اختلاف الرؤى الأيديولوجية وتعدد الشخصيات المتحاورة ووجهات النظر، فخارج كل نص توجد ذوات متعددة متفاعلة اجتماعيا ومتباينة وفق لهجاتها ونبراتها ونغماتها الاجتماعية، ومن هذا المنطلق رأى "باختين" أن الحوارية تعبر عن الواقع بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن المعنى متعددا وليس وحدة ثابتة

كما أخبر "سوسير"، وهاته التعددية تنفي الخطاب المتسلط الذي ينحاز لصوت واحد غالبا ما يمثله صوت الكاتب ، نفهم من هذا أن الحوارية لا تقوم على سلطوية الصوت الواحد بل تنهض على حوار عدة أصوات متفاعلة فيما بينها، وبهاته الطريقة تنشأ تعددية اللغات المتعايشة فيما بينها والتي تبقى في اتصال وحوار دائمين، يكون فيه صوت الكاتب واحدا من بين جميع الأصوات داخل الخطاب، ليس له امتيازا خاصا، وإنما يدخل صوته في إطار صراع مجموع الرؤى المعبرة عن شمولية الوعي الواقعي، وما يؤكد شموليتها هو احتواؤها على التهجين والعلاقات المتداخلة بين اللغات والحوار.

تتبيّن أهمية الحوارية في مختلف الدراسات التي تطرقت لها وعالجتها من جوانب مختلفة ونلمس ذلك في أعمال "جوليا كريستيفا" التي ارتكزت على حوارية "باختين" في بناء مفاهيم التناص وذلك من خلال " مقالتين ظهرتا في مجلة (تيل كيل tel Qel) أعيد نشرهما فيما بعد في مؤلفها الصادر عام 1969 (سيميوتيكي). حيث ظهرت المقالة الأولى عام 1966 وحملت العنوان التالي "الكلمة ، الحوار، الرواية"واحتوت على أول استخدام للمصطلح، وحملت المقالة الثانية عنوان "النص المغلق"سنة 1967 وقامت بتحديد أكبر للتعريف على أنه تقاطع بلاغات في نص ما مأخوذ من نصوص أخرى"[5]، ولذا فإن الباحثة البلغارية تدين لاستفادتها من الإرث الباختيني في استيحاء مصطلح "التناص" الذي يتأصل من أفكار "باختين" حول الحوارية، و قد امتد فضل حوارية "باختين" إلى الدراسات الحديثة في تبلوره كاتجاه قائم بذاته، ويظهر ذلك في كتابات "جيرار جنيت" الذي رأى أن التناص هو امتداد فعلي للحوارية ويعبر عن حضور النص في نصوص أخرى.

اِلتفتت الثقافة الأدبية العربية إلى أهمية الحوارية من خلال مقالين مهّدا لأن تترجم كتابات "باختين" فيما بعد[6]، تتمثل المقالة الأولى في الدراسة التي أنجزها "فيصل درّاج بعنوان (العلاقة الروائية في علاقات الإنتاج) ونشرت مجلة الطريق التي خصصت عددا للرواية العربية هذه الدراسة ضمن موادها، والدراسة الثانية تدور (حول مفهوم الفهم الغولدماني والحوارية الباختينية) لحميد لحميداني، وهي إعادة صياغة لحوار بينه وبين "يمنى العيد" التي

عارضت محاولته للجمع بين حوارية باختين وبنيوية غولدمان، وذلك في كتابه النقدي (من أجل تحليل سوسيوبنائي للرواية ـ المعلم علي أنموذجا)"[7]، وبعدها توالت الدراسات حول فكرة الحوارية تنظيرا وتطبيقا، ومن ذلك الدراسة التي كتبها "جميل حمداوي" الموسومة بـ (الرواية البوليفونية أو الرواية متعددة الأصوات)[8] وفيها توصل إلى أن الرواية الحوارية من منظور "باختين" هي "رواية متعددة الأصوات واللغات واللهجات والأساليب، كما أنها رواية منفتحة قائمة على التناص الحواري، وتعدد الخطابات، وتفاعل الأجناس الأدبية والفنية، وتلاقح اللغات واللهجات؛ مما يجعل هذه الرواية تستجمع جميع الأصوات واللغات واللهجات الاجتماعية، لتعبر بكل حرية وديمقراطية عن وجهات نظرها ، مع حضور المؤلف الوهمي الذي يتنازل بشكل من الأشكال عن سلطته لراوي الرواة، أويتنازل للسراد المتعددين، أو يتنازل للشخوص لتعبر عن عوالمها الداخلية ومواقفها تجاه الموضوع"[9].

وأوضحت الباحثة "إيمان مليكي" في مقالها المعنون بـ (مفهوم الرواية متعددة الأصوات دراسة في معطيات باختين) الآليات الحوارية التي جاء بها "ميخائيل باختين" من خلال الأيديولوجيا المتعددة و الانفتاح على الأجناس التعبيرية وصورة اللغة وفضلها على الرواية الجديدة، وخلصت الكاتبة للعديد من النتائج من بينها أن "المظهر اللساني هو امتداد للطبيعة الاجتماعية، وهو ما نعتمد عليه حين نستنطق الرواية الحوارية من هذا الجانب، أي أنه لكي نفهم البنية الأدبية للرواية ـ من منظور باختين ـ لا بد من الاعتماد على لغتها التي تستعمل الكلمة أداة لتجسيد الموقف الاجتماعي، أي نفهم أن الرواية هي مزيج بين ما هو فني و ما هو أيديولوجي، و لمقاربتها لا بد من استنطاق الجانب الجمالي "الأسلوبية الفنية " و الأيديولوجي كليهما معا"[10].

تعددت الكتابات حول الحوارية في الفن الروائي، ومن هنا يستمد هذا البحث فرادته باعتباره يبحث عن الحوارية في الفن الرسائلي التراثي عند ابن أبي الخصال، وتبرز أهميته ـ أيضا ـ في محاولة مقاربة فن تراثي عربي أصيل وفق منهج أجنبي حديث، وهذا بغية التحقق من شمولية لغة الفن الرسائلي العربي وأنها تتجاوز فكرة بناءها المستقل وقواعدها المقننة إلى أنها لغة منفتحة

تستوعب الدراسات العلمية الممنهجة التي تخضع المكونات الخطابية إلى طابع العالمية، وانطلاقا من هنا يسعى هذا البحث من خلال النظرية الحوارية للكشف عن صورة اللغة في رسائل ابن أبي الخصال، وتبيان التعددية اللغوية وما تتضمنه من خصوصيات كلامية وتشابكات لغوية في ثقافة الشعوب وثقافة ابن أبي الخصال من خلال حوارية رسائله الديوانية والاخوانية معًا، وللإجابة عن ذلك يُطرح الإشكال التالي:

كيف تجسد الموقف الاجتماعي للغة من خلال محاورة ابن أبي الخصال الوعي الآخر واستحضراه داخل صوته من خلال رسائله؟ وما مدى اشتغال "صورة اللغة " في الرسائل ؟وكيف تفاعل صوتين واندمجا في كلمة واحدة؟ وكيف تكشفت مجموع الرؤى والأفكار للوعي الفردي المعبرة عنها باللغة المتعددة الحوارية؟ وما هي النظرة الشمولية للعالم التي تولت الرسائل إبرازها؟ وماهي القرائن السياقية التي اشتغل عليها الحوار وكيف تفاعلت النصوص وتحاورت الخطابات؟

أولا- الأسلبة:

يظهر أسلوب حواري في ملفوظ لغة واحدة ويكون بمثابة إضاءة متبادلة بين اللغات، وفي هذه "الإضاءة المتبادلة لا يكون هناك توحيد مباشر للغتين داخل ملفوظ واحد، وإنما هي لغة واحدة محينة وملفوظة إلا أنها مقدمة على ضوء اللغة الأخرى، وهذه اللغة الثانية تظل خارج الملفوظ ولا تتحين أبدا، إن الشكل الأكثر تميزا ووضوحا لهذه الإضاءة المتبادلة ذات الصيغة الحوارية الداخلية هو الأسلبة"[11]، ويقصد "باختين" بتحيين اللغة على أنها "مقدمة في صورة آنية actualisée، ولا يمكنها بالطبع أن تحصل على هذه الصورة الآنية إلا إذا قدمت بواسطة وعي لغة آنية خفية تعمل بشكل غير مباشر"[12].

أعاد ابن أبي الخصال أسلبة الأسلوب بغية خلق وعي لساني داخل الرسالة، بحيث نلمس وراء لغة هذه المقاطع لغات متخفية هي لغة القدماء، أي أن الملفوظ يحمل في طياته لغات متوارية تظهر علامات وجودها في صورة اللغة المشخصة، ووفق هذه الطريقة نقلت لغة الرسائل اللغة القديمة في حلة جديدة "لغة محينة" وفيها استخلصت "بعض العناصر، وتركت البعض الآخر

في الظل، وتوجد نبرات خصوصية ومقامات تناغمية بين اللغة موضوع الأسلبة وبين الوعي اللساني المعاصر، وباختصار، فإنها تخلق صورة حرة للغة الآخرين لا تترجم إرادة ما سيؤسلب فحسب، بل أيضا الإرادة اللسانية والأدبية المؤسلبة"[13]، ومن أمثلة ذلك:

1- الأسلبة من القرآن الكريم: عمل ابن أبي الخصال على مزج نصه الرسائلي بالنص القرآني المؤسلب ويظهر ذلك من خلال الأمثلة الموالية:

أ- اللغة المُحينة الآنية: "اللهم يا من جعل الأرض قرارا، وفجّر خلالها أنهارا، و جعل لنا من الشجر الأخضر نارا"[14].

اللغة المُؤسلبة:

- [أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (النمل: 61).
- [الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ] (يس: 80).

ب- اللغة المُحينة الآنية: "ولو مرت بالروضة الغنّاء تجلو حسن مبتسمها ، وتضحك ملء فمها لتجهّمت بعد ابتسامها، وتوارت في أكمامها، وتوسع الأسماع وقرا، وتودع القلوب نكأ وعقرا، وتعد النفوس كفرا وفقرا، أخطأ صاحبها الرفعة والسناء، وشجرة تخرج من طور سيناء، و هدي إلى التي تخرج في أصل الجحيم، وتغلي في البطون كغلي الحميم"[15].

اللغة المُؤسلبة:

- [وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ] (المؤمنون: 20).
- [إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ] (الصافات: 64).
- [كَغَلْيِ الْحَمِيمِ] (الدخان: 46).

تظهر المزاوجة اللغوية للوعي اللساني في رسائل ابن أبي الخصال من خلال اللغة المحينة الآنية الحاملة لصوتين ووعيين، الصوت الأول يمثله وعي ابن أبي الخصال أمّا الصوت الثاني فيمثله وعي النص القرآني الكريم الذي استحضر ضمنيا داخل ملفوظ اللغة التحيينية، فابن أبي الخصال لم يستحضر النص القرآني ككل، بل أدمج داخل نصه الرسائلي القرينة الدالة على النص

القرآني الكريم/ الغائب، وهذا بغية تقوية منظوره الخاص والتأثير أكثر في المتلقي لتمرير مقاصده الخفية.

2- الأسلبة من الحديث النبوي الشريف: تستحضر الأمثلة الموالية لغة الحديث النبوي الشريف من خلال مزج النص الأصلي بالنص المُؤسلب في الرسائل:

أ- اللغة المُحينة الآنية: "الكافر أرزة مُجدية تتحاماها المعرّة، ثم تكرّ عليها كرّة فيكون انجعافُها مرّة"[16].

اللغة المؤسلبة: يقول صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الرياح تصرعها مرّة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله، ومثل الكافر مثل الأرزة المجذية على أصلها لا يقلّها شيء حتى يكون انجعافها مرّة".

ب- اللغة المُحينة الآنية:

"الدين جسم سوي باسق القـــدر وإن ألمّ بعضو منه ذي خطـــــر
داء تضعضع بالحمّى وبالسهر فانظر في الجسم مدعاة إلى النّظر
فإنما الغوث قبل الفوت و العطب "[17]

اللغة المُؤسلبة: قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

القارئ لهاته الأمثلة يحدس أن بعض كلماتها تحمل آثار استعمال خطاب لغوي سابق، والذي يوحي على خطاب الحديث النبوي الشريف، وبالتالي فإن الحوارية تظهر من خلال تشكل النص الرسائلي من نص آخر قبله، والمتمثل هنا في نص الحديث النبوي الشريف،"فالنص لا يولد من فراغ، فليس هناك حد فاصل بين نص وآخر"[18]،وبالتالي فالكاتب استطاع تمرير صوته من خلال هذا التفاعل النصي الذي أدى إلى تشكيل صورة اللغة، ويدل انفتاح وعي ابن أبي الخصال على النص النبوي الشريف على قصدية الصنعة الدينية التي استغلها كقوة مضافة إلى صوته بغية توجيه العامة و تنوير فكرهم.

3- **الأسلبة من الشعر العربي الفصيح:**

أ- اللغة المُحينة الآنية: "في حسن العشرة والثراء، إلى آفة الجزر، إلى الطيّب معاقد الأُزر"[19].

اللغة المُؤسلبة: ضمّن الكاتب من بيتي "الخرنق بنت هفان" :

لا يبعدن قومي الذين همُ سم العداة و آفة الجزر

النازلين بكل معتـــــرك والطيبون معاقد الأزر

ب- اللغة المُحينة الآنية: "وأبو الفضل، وإن كان سمّي بديعا، ولأخلاف البلاغة رضيعا لا يقاس بأبي إسحاق رأسا، ولا يجعل له سلما ولا بأسا، لأنهما وإن جمعهما أصل اللسان ومزاولة الإحسان كالثريا وسهيل لا يلتقيان، ولا يشتبهان فيما ينتقيان"[20].

اللغة المؤسلبة : في الكلام تضمين لشعر أنشده عمر بن أبي ربيعة، فقد كان يشبّب بالثريا من بني أمية ، و تزوجها سهيل بن عبد العزيز فقال:

أيها المنكح الثريّا سهيلا عَمَرَك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلّت وسهيل إذا استقلّ يمان

وظّف ابن أبي الخصال الأسلبة من الشعر بغية تجاوز الأسلوب التقريري نحو أسلوب فني جمالي، وهذا بهدف لفت انتباه القارئ واستمالته ، والواضح أن ابن أبي الخصال أدرك التركيز الحسي للشعر العربي الفصيح لذا جعل رسائله تنفتح على بلاغة الأسلوب الشعري، وقد تم استحضارها داخل نصه بصفة ضمنية أي أن ابن أبي الخصال استعار جزءً من اللغة الشعرية كقرينة دالة على سياقها اللغوي الأصيل بغية إحداث تمازج لغوي فني في نسق واحد.

4- الأسلبة من المثل العربي الفصيح: عمل ابن أبي الخصال على مزج نصه الرسائلي بالمثل العربي الفصيح المؤسلب ويظهر ذلك من خلال الأمثلة الموالية:

أ- اللغة المُحينة الآنية: "برزت عن حضانة أكرم الآباء إلى حضانة أكرم الأكفاء، إلى البيت بالعلياء ، إلى سيّد الأحياء ، إلى أبي زرع"[21].

اللغة المُؤسلبة: ضربه مثلا قال في تاج العروس : زرع اسم ، وفي الحديث : كنت لك كأبي زرع لأم زرع ، وهي أم زرع بنت أكيمل بن ساعدة.

ب- اللغة المُحينة الآنية: "تفتيت حصان الله فتاءك ، وكثر ريعك إتاءك"[22].

اللغة المُؤسلبة: إشارة إلى المثل العربي "عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرى".

عمل ابن أبي الخصال على تضمين المثل العربي الفصيح داخل رسائله، وهذا ما أدى إلى خلق تعددية صوتية داخل الخطاب، حيث يعبر الصوت الأول عن وعي ابن أبي الخصال، ويعبر الصوت الثاني عن الوعي الذي يحمله المثل، وقد استند ابن أبي الخصال على محاورة رزانة المثل العربي الفصيح بغية إقناع المتلقي وإثقال لغته ورفعها إلى أفق الخطاب الفكري العقلي.

اكتسبت لغة الرسائل أهميتها من خلال تشخيصها للأسلوب اللساني للآخرين من خلال تنويعها للوعي اللساني للمؤسلب الذي استعان بالمادة الأولية للغة فأضاءها، ونتج عن هذا أسلبة عدة لغات متضمنة وخفية وراء الملفوظ، فحضر الأسلوب القرآني وأسلوب الحديث الشريف وأسلوب الشعر العربي الفصيح وأسلوب المثل الفصيح، فالأسلوب عن طريقة التفكير "ومادته هي اللغة في ألفاظها وتراكيبها التي تختلف من صوت إلى صوت ومن شخصية إلى أخرى بحسب صور الفكر ورؤى العالم المتناقضة أو المتضاربة"[23]، وقد استطاع ابن أبي الخصال تمرير مقاصده من خلال هاته الأساليب التي عبرت رؤيته للآخر وصراع السياق الخارجي، وتم توظيفها من خلال ردم الحدود بين الخطابات المتباعدة زمنيا، حيث تجاوز ابن أبي الخصال التوظيف الشكلي للغة عبر أسلبة اللغة واستطاع من خلالها التعبير عن منظوره عبر تكثيف الرمزية والإيحاء.

ثانيا ـ التهجين اللغوي

يقصد بالتهجين اللغوي"مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، والتقاء وعيين لغويين مفصولين داخل ساحة ذلك الملفوظ"[24]، وقد اشترط

"ميخائيل باختين" في التهجين أن يكون فرديا وواعيا وقصديا، وفيه تعمل الإضاءة المتبادلة بين لغة محلية ولغة أجنبية في عملية الخلق الأدبي، على تأكيد إدراك العالم "في كلتا اللغتين وتعطيه شكلا وكذلك تفعل مع شكليهما الداخليين وأنظمة قيمهما الخاصة، وبالنسبة للوعي الذي يخلق العمل الأدبي ليس ما يظهر من الحقل الذي يضيئه اللسان الأجنبي هو النظام الصوتي للغة المحلية أو خصائصها المورفولوجية أو حتى معجمها المجرد بل، وبدقة، ذلك الذي يجعل من اللغة إدراكا محسوسا للعالم لا يمكن ترجمته إطلاقا وبالتحديد أسلوب اللغة كوحدة كاملة "[25].

يظهر التهجين اللغوي داخل الخطاب الرسائلي ـ على سبيل المثال ـ في قول ابن أبي الخصال:

أ- "في أمر (قوريّة) يسرّ ومعتبرُ ... هل للكواكب في استفتاحها أثرُ"[26].

ب- "وتلك (سمّورة) تهوي من الفرق ... وفي ضمانك أن تروي من العلقِ"[27].

نلاحظ التقاء وعيين متحاورين في نطاق السياق اللفظي لكلمتي (قوريّة، سمّورة)، الأول يمثله الوعي اللساني للغة الكاتب من خلال أصوات العربية الفصحى، والثاني الوعي اللساني للغة المُشخصَة من خلال اللغة الأجنبية التي تدل على مدينتي (ZAMORA ،CORIA)، فالهجنة "ليست ثنائية الصوت والنبرة فقط ـ كما في البلاغة ـ فحسب، بل هي مزدوجة اللسان، وهي لا تشتمل فقط على وعيين فرديين، على صوتين، على نبرتين، بل على وعيين اجتماعيين لسانيين وعلى حقبتين ليستا في الحقيقة مختلطتين هنا بكيفية لا واعية، بل هما قد التيقتا بوعي، وتتصارعان فوق أرض ملفوظ"[28].

فلغة الرسالة استقطبت اللغة الاجتماعية الأجنبية ونقلتها جنبا إلى جنب مع لغة الكاتب، وبالتالي فاللغات ليست منصهرة كلية مع بعضها بل هي متجاورة حواريا، وقد جاء هذا التهجين اللغوي عنوة من طرف ابن أبي الخصال ليضئ الوعي اللساني للغة على الأخرى، أي أن إدراجه للملفوظات داخل المتن الرسائلي جاء عن قصد منه وهذا لتبيان مدى إضاءة اللغة الأجنبية على لغته، بحيث تجسد في ملفوظ واحد صوتين علا صوت على الآخر فأضاءه وتفاعل معه لإبراز الوعي المقصود من وجهة نظر سوسيولسانية، أي أن

فردية لغة ابن أبي الخصال تبرز في هاته الهجنة القصدية الواعية من خلال العنصر السوسيولساني الذي أسهم في تحيين اللغة الثانية وربطها بالمتن الرسائلي، وهذا ما يفسر وجود ملفوظان كامنان داخل ملفوظ واحد، أي ضم ملفوظين مختلفين اجتماعيا في ملفوظ واحد.

ثالثا- الحوار الفني

الحوار هو ظاهرة كلامية "يوظفها الإنسان بوصفها أداة للتواصل الحياتي حينا، وبوصفها تقنية أدبية حينا آخر، وبهذه الثنائية أصبح الحوار ظاهرة إنسانية، تفرض وجودها ، الحياتي، والإبداعي، والعقائدي، وبخاصة في التواصل الثنائي والجماعي"[29]. وقد استغله الفلاسفة اليونان في إفهام قضاياهم على هذا النحو شفويا "سقراط" وكتابيا "أفلاطون" واستخدموه كنوع أدبي قائما بذاته لعرض أفكارهم[30].

1- الحوار الحواري: تختلف نسبة حضور الحوار في النصوص الأدبية بحسب اختلاف أنواعها، ويشترك فيها على أنه إجراء فني يتوسله الأديب لتنظيم مقولاته و عرض آراء، ويعتبر ميخائيل باختين الحوار "هدفا بذاته وليس مجرد وسيلة ، فالحوار هنا ليس مقدمة تقود إلى الحدث، بل هو نفسه حدث إنه لا يعتبر كذلك وسيلة للكشف عن الطبع الجاهز للإنسان كلا، فالإنسان لا يعمل فقط على الكشف عن نفسه في الخارج بل هو يصبح لأول مرة ماهو عليه بالضبط، أي أنه يتكشف ليس فقط للآخرين، بل ولنفسه ذاتها أيضا، أن تكون فهذا يعني أن تتعاشر حواريا، وعندما ينتهي الحوار ينتهي كل شيء، ولهذا فإن الحوار لا يستطيع في الحقيقة أن ينتهي بل ويجب أن ينتهي"[31].

وانطلاقا من هذا يمكن القول أن رسائل ابن أبي الخصال جاءت هدفا قائما بذاته، وحملت في نصها الكثير من الأحداث، ومن خلالها تكشفت لغة ابن أبي الخصال و تكشفت رؤاه تجاه العديد من القضايا التي عالجها في رسائله، فالمحاورة لم تتم بين الباث/ ابن أبي الخصال والمتلقي فحسب، بل تمت داخل النص ذاته عن طريق حوار النصوص الذي أفضى إلى التعدد اللغوي بالضرورة، وهذا "ما أطلق عليه باختين الحوارية بين النصوص، ثم أسمته

جوليا التناص، وغالبا ما يتحقق الحوار بين النصوص مع النصوص المقدسة، ومع الأساطير وبعض الوقائع التاريخية، ويكون المستهدف توثيق مقولات النص الحاضر وتزكيتها بمعاودة النص المقدس"[32]، ومثال ذلك ما جاء من اقتباس مباشر للنص القرآني: "أما والله لو علموا ما فاتهم، لمقتوا حياتهم، ولأذابهم الأسف و أمتهم الله أكبر الله أكبر الله أكبر. قال الله تعالى جدُّه: [إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ] (التوبة: 36) وقد كان أهل الجاهلية يتأوّلون لإساءة المسيء، وها نحن لا نستتر منها بجنة، بل معاصينا نار قنّة"[33]، وتظهر محاور الرسالة للحديث النبوي الشريف ما تضمنه نصها في قول ابن أبي الخصال: وعنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما رؤيَ الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا رآه من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلاّ ما أريَ يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه رأى جبريل يزعُ الملائكة"، وعنه صلى الله عليه وسلم قال: "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له" فافزعوا رحمكم الله لإكرامه و تجهيز ما اجتاز بكم من أيامه"[34]، قد حاور النص الرسائلي الشعر العربي الفصيح عن طريق اقتباس مباشرلبيت شعري لأبي الطيب المتنبي في قول ابن أبي الخصال:

"وكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليل

وأقرأ عليك سلاما كثنائك، لا يبرح عن فنائك، تظلل أفقك غمامه، ويزحزح الهجير برده و سلامه"[35].

استند ابن أبي الخصال على المرتكزات النصية الخارجية لإفهام المتلقي رسالته، وتم ذلك عن طريق المحاورة المباشرة لنصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح ...إلخ، وبالتالي فقد ارتكز على محاورة النصوص الأخرى انجاح العملية الحوارية، واعتمد في ذلك على تقنية الحوار الاقناعي باعتبارها "تقنية أدبية ووسيلة لتأكيد الرأي بالبرهان"[36]، بغية التأثير في المتلقي وتقوية اقناعه بالأدلة النصية، فالحوارية هي "وعاء

للتشابك بين الخطابات، فهي تسمح للخطاب والخطاب الآخر بالدخول في تفاعل حي وعلاقات معقدة ومتشابكة، وقد قدم باختين فكرة التناص في صورة مبسطة جدا تعتمد على فكرة الجسم الإنساني، ذلك الجسم الغريب في حالة صيرورة، إنه لا ينتهي ولا يكتمل أبدا، إذ تتم عملية تشكيله وخلقه بصفة مستمرة، وهو يقوم بتشكيل وخلق جسم آخر، إن كل تلك التعقيدات ، تشترك في صفة واحدة، ففي داخلها يمكن التغلب على الحدود والأجسام والحدود بين الجسم والعالم هناك عملية تبادل وتفاعل"[37].

أظهرت الأدلة البرهانية في النص الرسائلي الإنسان الداخلي المتعدد لابن أبي الخصال، فحواره مع الآخرين عن طريق رسائله عدّ مجالا خصبا للتعبير عن رؤاه من خلال لغته الحوارية التي عملت على كشف الإنسان الداخلي لابن أبي الخصال بحسب متلقي الرسالة وموضوعها ، فتارة نجده إماما واعظا وتارة شاعرا حكيما وتارة ناقدا أديبا، وقد ناقش "باختين" كيفية تكشف الإنسان الداخلي أثناء الحوار فقال أن "الاقتراب منه و الكشف عنه، أو بكلمة أدق، إجباره على التكشف يتم فقط عن طريق الاختلاط به، وبطريقة حوارية"[38].

انبنت رسائل ابن أبي الخصال على التقنية الفنية الحوارية، ومن خلالها وشى بشخصه "طبيعة وبيئة وطبقة ومهنة وسلوكا، وربما شكلا أحيانا، أي أنه بعبارة أخرى أسهم في رسم شخصيته الفنية"[39]،وتمثيل سياقها الدال عليها، وارتبط نجاح حواره بمدى التوظيف الصحيح له من حيث ارتباطه بالدور الذي أداه في كل رسالة وبالموضوع الذي شاركه وبوظيفته وبلغته، وهذا ما جعل ابن أبي الخصال يأخذ بالاعتبار العلاقة بين قوله وموضوع كلامه و متلقي الرسالة، فأتى الحوار الرسائلي في كل مرّة منسجما مع شخصية المتلقي أو مستواها وطبقتها وثقافتها ودالا على سياقها الذي اقتطعت منه.

2- السياق الحواري: يدل السياق الحواري على العلاقات الاجتماعية بين الشخصيات التي تؤثر في مستوى الحوار لغة، ويوحي بالموقف الحواري زمانيا ومكانيا وثقافيا، ويرى باختين "أن كل ملفوظ حي، ينبثق له لحظة تاريخية محددة دينية اجتماعية محددة، وأن كل حوار حي منسوج من لدن

الوعي الاجتماعي القائم حول موضوع ذلك الملفوظ"[40]، ولهذا وجب البحث في مجموعة من المرتكزات الحوارية: زمن التخاطب ومكانه، علاقة الباث بالسامع، الحدث الكلامي، وكل ما له علاقة بالقناة السياقية التواصلية.

انطلاقا من هاته التساؤلات حدد باختين سياق التلفظ الخارجي وجعله يتألف من "ثلاثة مظاهر: الأفق المكاني، معرفة الوضع، وفهمه المألوف لكل المتحاورين وتقييمها المألوف"[41]، وبالرجوع إلى رسائل ابن أبي الخصال نجدها قد انفتحت على عوالم كتابية متعددة و استوعبت من السياق الخارجي العديد من الأفكار، وهذا يعني أن النص الترسلي "لا يعني أنه ينطوي على معاني عدّة فحسب، بل يعني أنه يحقق تعدد المعنى ذاته، أي أن تعددية النص لا تعود لالتباس محتوياته، وإنما لما يمكن أن يطلق عليه التعدد المتناغم للدلائل التي يتكون منها"[42]، ويعود ذلك إلى أن رسائله ولدت من بيئة اجتماعية متنوعة ومتغيرة في تكوينها، ولذا فإنها جاءت حاملة للكثير من الملابسات الشخصية والنفسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية والأدبية... إلخ، عبّر من خلالها النص عن الموقف الذي قيل بشأنها بوصفه جزء من عمليات الحياة اليومية والتفاعل الاجتماعي، وقد تنوعت مابين رسائل اخوانية ورسائل ديوانية.

شغلت الرسائل الاخوانية مساحة واسعة من رسائل ابن أبي الخصال وعبرت مجملها عن السياق النفسي الذي استمد قوة تجسده من خلال الصيغ اللغوية بخاصة، وقد تناولت الرسائل الاخوانية "قضايا الكاتب وإخوانه بعضها يتعلق بصناعة الأدب والكتابة، وبعضها الآخر يتصل بأمور اجتماعية شخصية"[43]، وهذا ما يترجم صلته بمعاصريه من الأدباء والعلماء والفقهاء، ومن الرسائل الاخوانية الحاملة لشحنات نفسية نذكر:

- قصيدة رثاء في صديق حميم من أصدقاء الكاتب الشاعر[44]، ورثاء قينة[45].
- رسالة اعتذر فيها ابن أبي الخصال إلى صديقه الوزير الكاتب أبي الحسين بن سراج، عما نسب إليه من تأليف المقامة القرطبية[46].
- رسالة من الكاتب إلى شخص لم يسمه، فيها مجاملة واعتذار لطيف[47].

تبرز شخصية ابن أبي الخصال البدوية في الرسالة التي حاور فيها "أبي الحسن" ويظهر ذلك في استعمال ابن أبي الخصال للأسلوب اللغوي

البدوي الذي ربط فيه تعبيره الرسائلي بمطلع قصيدة امرؤ القيس ليشبه ود أبي الحسن بالطلل الذي انصرف ولم يبق إلا تذكاره والبكاء عليه، يقول: "ألا عمّ صباحا أيها الطلل البالي:

وأعز على أن اضرب هذا لودك مثلا ـ وأدعوه على قرب العهد ـ طلالا لقد انتكثت عهدنا عن كثب، وآل ما كان من عجب إلى عجب، ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصى فصفى الله ـ أبا الحسن ـ أيام صفائك ما يصرها ومن بعطفه تعيدها وتكرها، ذلك إذا انجلت هذه العماية واتفقت ولاية الله في كل شيء آية. وآها ! أين ذلك النظام و ما نسق ، والزمان و ما وسق ! لقد أولى حميدا وذهب فقيدا كذلك كل أيام يعدن ذواهبا مذاهب شتى وسير لا يحصر بحتى وإخوان فرقتهم النوا أيدي السبابين شمال وصبا، صفى حج وأخر جلح في الإقامة ولج وعزم أن يفجعنا بأسنة ولا يزيننا بنفسه"[48].

تعبر هاته الرسالة عن التكوين الثقافي البدوي المشترك لابن الخصال/ المحاوِر وابن الحسن/المحاوَر، وهذا ما يسمى بسياق المعرفة المشتركة: background knowledge context والذي يتضمن"ما يعرفه المتخاطبون عن بعضهم بعضا ، وعن العالم بصورة عامة، وتتمظهر هذه المعرفة في نطاقين:أولهما ثقافي، يتمثل في المعرفة العامة التي يمتلكها معظم الناس في أذهانهم عن شتى مناحي الحياة، وثانيهما بينشخصي/اجتماعي يتمثل في المعرفة المعيّنة، وربما الخاصة، المتعلقة بتاريخ المتخاطبين أنفسهم"[49].

إن تعدد اللغة الحوارية لابن أبي الخصال في رسائله أسهمت في خلق مستويات كلامية عدة ، وهذا ما جعل رسائلة تتنوع من لغة المثقفين و لغة النثر والشعر ...إلخ ، فيظهر الأسلوب الفني النثري ـ مثلا ـ في الرسالة التي بعث بها ابن أبي الخصال إلى الوزير الكاتب أبي محمد بن القاسم يرد عليه بلغة أدبية نقدية في رسالته التي فضّل فيها بديع الزمان الهمذاني على أبي اسحاق الصّابي، وفيها انتصر ابن أبي الخصال للصّابي وفصّل واحتج لآراءه، يقول: "فأمّا نظمه فالأريُ المشور والفسق المقشور، والخسرُواني المنشور، ووجه الحبيب يملأ عين محبّه ويصور. يزيد في السّبك أضعافا وينصع، وتودّ الثغور

أنها بكلماته الغرّ تصرّع أو ترصّع، وهو ـ بعد ـ على مهيع العرب، وأسلوبها الأبعد الأقرب، لا يرحم توفيقها، ولا يخرم على حال طريقها"[50].

إن تحديد بيئة الكلام تسهم في الكشف عن البيئة الاجتماعية و الثقافية للغة الرسالة و تضمن عدم الخلط بين ثقافة و أخرى، ويستوجب فهم اللغة الإلمام بإدراك سياقها الذي وردت فيه أولا، و لذا وجب جمع السياقات المحيطة بالنص لفهمه وفك شفراته.

تبرز جملة من الظواهر الاجتماعية والمناخية التي احتواها النص الرسائلي الاخواني ويظهر ذلك من خلال السياقات الاجتماعية التي عبرت عن ثقافة مجتمعات البدو، ففي رسالة بعث بها ابن الخصال إلى صديقه الفقيه الذي ينتمي إلى العرب "اليمانية"، قال معاتبا له عدم زيارته: "راجع ـ أعزك الله ـ كرمك، وجهّز نحونا ديمك، وإن لم تزرنا فرفدك يزور، وإن حرت عمدا فجودك لا يجور، بل يعتمدنا اعتمادا، ويتدارك بساحتنا عهادا، ولولا خوف الوطأة الثقيلة، والتعلل بإقامتك القليلة، لانتدبنا نحوك كل منتدب، ووردنا عليك ورود فرض لا ندب، وقضينا من منتيشة كل وطر وأرب، وامتطينا إلى ذلك السهيلي كل وعر وسهل، ولقينا حلمه بأعظم جهل، وتسنّمناه طبقا طبقا، وأكلناه ثمرا وورقا، ولذدنا الطير عن الشجر قد بلونا الحلو من ثمره، ولكنا من ليلك الذي هو كليل منبج وسحره، ولأعرضنا بوجهك وأخلاقك عن نجومه وقمره. ومثلك ـ دام عزك ـ يكتفي بالتعريضة، والإشارة المريضة، فكيف وقد ألقيت القناع، وقرعت الأسماع، وشننت الغارة، ورميت من سماحتك فأنصفت القارة. فهاته أشهى من الأدب، وأحلى من الضّرب، أخضر الجلدة في بيت العرب،عقيلي الانتماء،حسن الصفات والأسماء، قد عاتبه الهواء وخمّشه، وعابثه النسيم وجمّشه، فمزّق تلك الديباجة ما ارتدى، وترقرقت في جنباته عبرة النّدى. ففي كل فنن منه منظر يسّر، وعنبرة مدحرجة تكللها الدرّ. قد أجدنا في الأوصاف فأجد في الانصاف وترفقنا في الاستلطاف، فجئنا بتلك القطاف، وتعطف فإنك ابن العطّاف"[51].

ذكر ابن أبي الخصال في النص الرسائلي الذي حاور به صديقه الفقيه مجموعة من طبائع المجتمع البدوي الذي ينتمي إليه مثل "الرخاء والسماحة

والكرم و التلميح و الإشارة "، وفيه ذكر أيضا لبعض صفات الشخوص البدوية مثل "السمرة و حسن البشرة"، وقد استحضر ابن أبي الخصال المجتمع البدوي في "بسطة" والتي تقع في واد منخفض في منطقة جبال سييرّانيقادا، واشتهرت بكثرة الغلال الزراعية وصناعة البسط والنسيج وبوفرة المياه والبساتين[52]، وقد حمل النص ذكر الصفات الطبيعية لها (الباكورة/ الطريق السهيلي/ الثمر و الطير والشجر الحلو ثماره/ المنبج في طيبة هواءها وعذوبة ماءها ورقة نسيمها وصحة تربتها ...الخ).

يبرز الدور الاجتماعي الذي أثاره ابن أبي الخصال في هذا الموقف الكلامي من خلال الألم النفسي الذي تعرض له لمّا علم أن صديقه الفقيه لم يعرّج إليه عند اقترابه من مقامه، و يظهر هذا من خلال قوله: "إذا اتصلت طريقك ـ أعزك الله ـ من بسطة إلى منتشية، فقد نغّصت علينا المعيشة، وطويتنا ببكورك وانفردت دوننا بجني باكورك، وما هو إلا المجاهرة بالقطيعة والتصريح أو البخل الصريح، وما نرضى لك وأنت من ذوائب الأذواء"[53]، وهذا القول يوحي بمدى الصلة النفسية التي يكنها ابن أبي الخصال لصديقه الفقية، ويدل في معناه البعيد عن التماسك الاجتماعي للمجتمع البدوي، ومتانة الصداقة، وحسن المعاملة و التودد الطيب بالمعاتبة اللينة، وهذا ما جعل ابن أبي الخصال يوظف صفات الرفعة ومن ذلك تلقيبه بصفة "الأذواء"، وهي صفة تدخل في ألقاب ملوك اليمن القدامى و تعني الشريف وعالي المقام، وقد جاءت هاته التجليات النصية التوددية قصدية بغية استعطاف صديقه كي لا يرحل إلى المجتمع الحضري إلى مدينة "منتشية"، ويظهر ذلك في قوله "وما هو إلا المجاهرة بالقطيعة والتصريح، أو البخل الصريح، وما نرضى لك وأنت من ذوائب الأذواء (...) ولكن مناجاتك تعذب

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

وأقرأ عليك سلاما كثنائك، لا يبرح عن فنائك، تظلل أفقك غمامة، ويزحزح الهجير برده وسلامه"[54].

تعد هاته الرسالة واحدة من بين العديد من الرسائل الحوارية لابن أبي الخصال التي تحاور ذاكرة الشعب ومرتكزاته التراثية والثقافية، فحمولة هذا

النص الرسائلي يستثير دلالات الكرم و الجود وسعة الترحيب ـ أيضا ـ التي اتصف بها ابن أبي الخصال ويظهر ذلك من خلال تفقده لصديقه ولومه عن عدم زيارته له عند مروره على مكان تواجده وإخباره أنه إذا لم يحل عليه ضيفا سوف يزوره حيث ما كان، وهذا ما يحيل على الثقافة التراثية للصفات البدوية التي ترتكز على الكرم وسعة الترحيب بالضيف ومتانة العلاقات الإنسانية فيما بينهم التي تظهر في احتواء علاقة الصداقة وتقديسها.

تعد رسالة المخمسة[55] ذاكرة زمكانية تحاور السياق السياسي لمدينة "قورية" وتستثير ظروفها الاجتماعية والثقافية والتاريخية، ومثال ذلك ما جاء به ابن أبي الخصال في قوله:[56]

في أمر (قورية) سرّ ومعتبــر هل للكواكب في استفتاحها أثر
حتى انتحاها أبو اسحاق والقدر وعزمة مالهم من دونــا وزر
كالسيل في الليل ذي التيار والحدب

بالرجوع إلى الخلفيات المعرفية التي انبنى عليها النص الرسائلي للمخمسة يظهر أنها جسدت الفساد الذي عاث به أمراء النصارى و قوادهم والذي بلغ قسوته على يد "ابن رذمير"، وبالتالي لا يمكن للمتلقي فك شفرات الرسالة و فهم مقاصدها إلا إذا وعى الحدث التاريخي السياسي الذي انبنت عليه، والذي يتمثل بالأساس في شكوى لقضايا القهر و الظلم لمدينة (قورية) باعتبارها "مدينة أندلسية منيعة من جهات الثغر الأعلى إلى الغرب كانت من نظر دولة بني هود ثم صارت في نظر المرابطين ابتداء من أوائل القرن الخامس، وهي قريبة من (ماردة)، وكان لها سور منيع يفيد في الدفاع عنها، وقد شدد النصارى في محاولات الاستيلاء عليها واستعصت عن ألفونسو المحارب ملك أراغون (ابن رذمير) ومات دون ذلك، وفي سنة 536 حاصرها ألفونسو ريموندیس ولما يئست من الإنجاد سقطت، ودالت دولة العرب فيها"[57].

خاتمة

بعد هذا التوصيف الذي استقصينا من خلاله الحوارية في الفن الترسلي التراثي لرسائل ابن أبي الخصال يجدر ختاما عرض النتائج والملاحظات في السطور الموالية:

1- استمدت الرسائل أهميتها باعتبارها ذات أسلوب ديالوجي يستمد حضوره من الكون القائم بأكمله على الحوار، وقد نقل ابن أبي الخصال لغتها وفق بناء فني قائم على التهجين والأسلبة والحوار الفني.

2- سمح الحضور المتنوع للنصوص داخل الرسائل والإفادة من الأجناس المجاورة القديمة والحديثة بتحقيق رسائل ابن أبي الخصال للشمولية، وبالتالي فإن فكرة الحوارية سمحت بعرض الحقيقة الواحدة من وجهات نظر متعددة .

3- الرسائل هي عبارة عن مشاهد حاملة لحصيلة وجهات النظر المتعددة حول شخصية ابن أبي الخصال، وقد اختار الكاتب رسائله بعناية باعتبارها الوسيلة المناسبة لتمثيل الإنسان الداخلي فيه المتعدد، وصيغت الرسائل كلها بالأسلوب الفني التعليمي بسبب لا محدودية طاقتها التمثيلية وقوة محتواها الأدبي، لذا استحالت إلى فضاء مسرحي من الحركة والنشاط والتحولات والصراعات.

4- رسائل ابن أبي الخصال هي جنس مركب من خطابات متعددة، ويرجع هذا لاستقبالها لمختلف الأجناس التعبيرية وإدماجها في سياقها، وبالتالي فإن لغته استدعت لغات أخرى إلى نصها وحاورتها، وقد عمل ابن أبي الخصال على نقل هاته اللغات الغائبة من خلال أسلبتها وجعلها مقدمة في شكل آني بحلة جديدة، والتي تتمثل في: لغة القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح والمثل العربي الفصيح،و تتبيّن الأسلبة داخل النص الرسائلي من خلال ما يلمسه القارئ من لغات متخفية تشتغل بشكل غير مباشر في وعي اللغة المُحينة الآنية، تدل عليها القرائن الدلالية للنص الغائب داخل لغة الرسالة، ووفق هاته الطريقة تمت صناعة صورة اللغة في الخطاب الرسائلي.

5- الكفاءة السياقية لخطاب ابن أبي الخصال أعانته لكي يوظف فكرة الحوارية في رسائله باعتبارها أشد الأساليب القولية إقناعا للآخر، ولا يمكن فهم مقاصدها في استحضر السياق الرابط بين الملفوظ والقصد، ولذا تطلب من القارئ وجوب ردّها إلى سياقها لفهم مقاصدها المستلزمة.

6- أسهمت الحوارية في صناعة النص الرسائلي من خلال اشتغالها كتقنية، ويعود توفيق ابن أبي الخصال في شحن الرسائل بالوظيفة التقنية إلى قوة حسه الفني في استعماله لآلية الأسلبة والتهجين و الحوارالفني كما أخبر بها "ميخائيل باختين"، والتي مكنته أيضا من صنع حوار مناسبا لموضوع الرسالة وراسما صورتها بوضوح، وهذا ما خلق تلاؤم ما بين طبيعة تلك الرسائل وطبيعة كلامها وحواراتها.

7- إن توظيف التهجين ـ على قلته ـ داخل نص ثقيل ببلاغته لم يحدث أي إرباك للرسائل ولا أي إخلال بسياق الفصحى، بل زاد الحوار قوة في الإقناع وانسجاما مع الحدث والشخصية ومقصدية الرسائل ، وقد يعود العامل الرئيس الذي أسهم في انسجام اللغة الهجينة مع اللغة الفصحى إلى الحس الفني لابن أبي الخصال ودقته اللغوية، فما قام به أنه استل الكلمة من لغتها الأصلية الأجنبية ومزجها باللغة العربية الفصحى، واستعمل ابن أبي الخصال التهجين حين أيقن أنه إن تم عزل الكلمة عزلا مطلقا عن جذورها اللغوية الحية سوف تتشوه هويتها وتموت، فلا شيء يمنحها القوة والاستمرارية داخل النص سوى الرجوع بها إلى أصلها اللغوي للتدلال لكن وفق أسلوب لغوي جديد، وهذا ما جعل الرسائل الفصحى تستمد رصانتها من الخلفيات الثقافية للغة الأجنبية.

8- لا يمكن للمتلقي استوعاب مدركات المعنى الحقيقي للنص وأفكاره إلا إذا استوعب الاشتباكات السياقية النفسية والاجتماعية والثقافية التي تعبر عن المحيط المولد للرسالة، لذا وجب عليه فهم التكوين السياقي للرسالة والوقوف عند المسببات الداخلية والخارجية المحركة للخطاب، حتى يتسنى له الكشف عن دلالات النص والإمساك بمعانيه الحقيقية، وبهاته الطريقة يتم إخراج النص الرسائلي من حالته المباشرة عن طريق شحذ المساحة التأويلية لإدراك المعاني البعيدة المقصودة التي تسكن خارج النص.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع)

الكتب القديمة:

1- أبو عبد الله بن أبي الخصال (ت 540 هـ) ، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988.

الكتب الحديثة:

2- إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008.

3- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1996.

4- تفيين ساميول، التناص ذاكرة الأدب، تر نجيب غزاوي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط ، 2008.

5- ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية،دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع،عمان، ط1، 2018.

6- حميد لحميداني، أسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات سال، الدار البيضاء، ط1، 1989.

7- فوزي سعد عيسى، أبو عبد الله بن أبي الخصال، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط ، دت.

8- فوزي سعد عيسى، رسائل ومقامات أندلسية، دار المعارف، مصر، دط، دت.

9- محمد عبد المطلب، القراءة الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2013.

10- مروة فتحي عبد المحسن، الحجاج والحوار في رسالة الغفران، قراءة ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 2018.

11- معجب بن سعيد الزهراني، نحو التلقي الحواري، مقاربة لأشكال تلقي كتابات ميخائيل باختين في السياق العربي، كلية الآداب جامعة الملك سعود، الرياض، دط، 2002.

12- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987.

13- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، تر جميل نصيف التكريتي، مر حياة شرارة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.

14- نجم عبد الله كاظم، مشكلة الحوار في الرواية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، دط، 2008.
15- نهلة فيصل أحمد، التفاعل النصي التناصية، النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، دط، 2010.

المجلات:

16- إبراهيم صحراوي، النص الأدبي فضاء للحوار، مجلة علامات في النقد، جدة، ج 54، م14، ديسمبر2004.
17- إيمان مليكي، مفهوم الرواية متعددة الأصوات، دراسة في معطيات باختين، مجلة كلية الشيخ الطوسي الجامعة، العراق، ع 3، تشرين الثاني 2016.
18- رولان بارت، من الأثر الأدبي إلى النص، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع37، 1986.
19- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، ع232، أفريل 1998.
20- فيصل دراج، ميخائيل باختين، الكلمة اللغة الرواية، مجلة الآداب الأجنبية، سوريا، ع99، 1999.

موقع الأنترنت:

21- جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، 2012/03/08، نُظر يوم 26 جويلية 2020، الساعة 9:34.
https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038 .

الهوامش:

[1]- محمد عبد المطلب، القراءة الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2013، ص 122.

[2]- فيصل دراج، ميخائيل باختين، الكلمة اللغة الرواية، مجلة الآداب الأجنبية، سوريا، ع99، 1999، ص 127.

[3]- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط2، 1996.، ص 121.

[4]- تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر فخري صالح، المرجع نفسه، ص 124.

[5]- تفيين ساميول، التناص ذاكرة الأدب، تر نجيب غزاوي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2008، ص 8، 9.

[6]- ترجم "جميل نصيف التكريتي" عن الروسية كتاب (شعرية دوستويفسكي)، وترجما "محمد البكري" ويمنى العيد" عن الفرنسية كتاب (الماركسية و فلسفة اللغة)، وترجم "محمد برادة" عن الفرنسية كتاب (الخطاب الروائي) الذي ترجمه "يوسف الحلاق" بعنوان مختلف تمثل في (الكلمة في الرواية)، وترجم "جمال شحيد" كتاب (الملحمة و الرواية)، و ترجم عن الانجليزية " فخري صالح" كتاب "تودوروف" عن حوارية "باختين" الموسوم بـ (باختين: المبدأ الحواري).

[7]- معجب بن سعيد الزهراني، نحو التلقي الحواري، مقاربة لأشكال تلقي كتابات ميخائيل باختين في السياق العربي، كلية الآداب جامعة الملك سعود، الرياض، دط، 2002، ص 20.

[8]- ينظر جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038، 2012/03/08، نُظر يوم 26 جويلية 2020، الساعة 9:34.

[9]- ينظر جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، الموقع نفسه، https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038، 2012/03/08، نُظر يوم 26 جويلية 2020، الساعة 9:34.

[10]- إيمان مليكي، مفهوم الرواية متعددة الأصوات، دراسة في معطيات باختين، مجلة كلية الشيخ الطوسي الجامعة، العراق، ع 3، 2016، ص 340.

[11]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص 122.

[12]- حميد لحميداني، أسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات سال، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 87.

[13]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر فخري صالح، مرجع سابق، ص122.

[14]- أبو عبد الله بن أبي الخصال(ت 540 هـ)، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988، ص 37.

[15]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 52، 53.

[16]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 95.

[17]- المصدر نفسه، ص 48.

[18]- مروة فتحي عبد المحسن، الحجاج و الحوار في رسالة الغفران، قراءة ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2018، ص 55.

[19]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 35.
[20]- المصدر نفسه، ص 145.
[21]- المصدر نفسه، ص 35.
[22]- المصدر نفسه، ص67.
[23]- إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص 20.
[24]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد برادة،مرجع سابق، ص 18.
[25]- تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر فخري صالح، مرجع سابق، ص123
[26]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 41.
[27]- المصدر نفسه، ص 46.
[28]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد برادة، مرجع سابق، ص 121.
[29]- مروة فتحي عبد المحسن، الحجاج و الحوار في رسالة الغفران،مرجع سابق، ص 45.
[30]- ينظرإبراهيم صحراوي، النص الأدبي فضاء للحوار، علامات، جدة، ج 54، م14، ديسمبر2004، ص 598.
[31]- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، تر جميل نصيف التكريتي، مر حياة شرارة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، د.ط، د.ت، ص 365.
[32]- محمد عبد المطلب، القراءة الثقافية، مرجع سابق، ص 127.
[33]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 569.
[34]- المصدر نفسه، ص 571.
[35]- المصدر نفسه، ص 169.
[36]- مروة فتحي عبد المحسن، الحجاج و الحوار في رسالة الغفران، مرجع سابق، ص 47، 48.
[37]- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، أفريل، العدد 232، 1998، ص 364.
[38]- نهلة فيصل أحمد، التفاعل النصي التناصية،النظرية و المنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، دط، 2010،ص 105.
[39]- نجم عبد الله كاظم، مشكلة الحوار في الرواية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن،دط، 2008، ص 77.
[40]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر محمد برادة، مرجع سابق، ص 52.

[41]- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين المبدأ الحواري، تر فخري صالح،مرجع سابق، ص 90.
[42]- رولان بارت، من الأثر الأدبي إلى النص، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع37، 1986، ص 14.
[43]- فوزي سعد عيسى، رسائل ومقامات أندلسية، دار المعارف، مصر، دط، د ت، ص 116.
[44]- ينظر أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 246.
[45]- ينظر المصدر نفسه، ص 266.
[46]- ينظر المصدر نفسه، ص 355.
[47]- ينظر المصدر نفسه، ص 532.
[48]- فوزي سعد عيسى، أبو عبد الله بن أبي الخصال،دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، دت، ص 125، 126.
[49]- ثروت مرسي، في التداوليات الاستدلالية قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع،عمان، ط1، 2018، ص 122.
[50]- أبو عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، مصدر سابق، ص 137.
[51]- المصدر نفسه، ص 167، 168، 169.
[52]- ينظر هامش المصدر نفسه، ص 166.
[53]- المصدر نفسه، ص 166، 167.
[54]- المصدر نفسه، ص 167 - 169.
[55]- المخمسة هي عبارة عن منظومة شعرية يأخذ الشاعر قصيدة لشاعر آخر ويضيف إلى كلّ بيت ثلاثة أشطار على الوزن وعلى قافية صدر البيت، فتتم خمسة أشطار، و يستمر الشاعر هكذا إلى آخر المخمسة، ينظر هامش المصدر نفسه، ص 39.
[56]- المصدر نفسه، ص 41.
[57]- ينظر هامش المصدر نفسه، ص 41.